معارف
ISSN 1112-7007
EISSN 6804 -2600
المجلد 17/ العدد 2 (ديسمبر 2022): ص.ص:783-799

الفكر النسوي العربي. نوال السعداوي نموذجا

Arab feminist thought

Nawal El Saadawi as an example

أ. أحمد سليماني*

جامعة البويرة، الجزائر، a.slimani@univ-bouira.dz

تاريخ الاستلام: 2022/08/17؛ تاريخ القبول: 2022/11/15؛ تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى التعرف على النسوية في الفكر العربي من خلال أعمال وكتابات الطبيبة والكاتبة المصرية نوال السعداوي، التي جمعت طوال مسارها العلمي بين الطب والفلسفة والأدب، وهي الشخصية التي كانت ولا تزال-من خلال كتاباتها وآرائها-تثير جدلا واسعا في أوساط النخبة العربية، وذلك ليس فقط لدفاعها عن حقوق المرأة العربية، والنضال لنيل حقوقها المدنية والسياسية فحسب، بل لتمردها على الثقافة العربية السائدة، ولجرأتها الفائقة على الخوض في جوانب كانت ولا تزال من الطابوهات أو المحرمات.

ولقد استطاعت النسوية العربية نوال السعداوي أيضا أن تتحدث عن كل ما هو مسكوت عنه في الفكر ا الإسلامي، وليس أدل على ذلك من تطرقها إلى موضوع الجنس، الذي حاولت تحليله من خلال ربطه بموضوعات أخلاقية واجتماعية ودينية.

كلمات مفتاحية: مذهب نسوي؛ المرأة؛ أبوية؛ هيمنة ذكورية؛ فلسفة.

Abstract:

The aim of this research is to identify the Arab feminism through the works and writings of the Egyptian doctor and writer Nawal El-Saadawi that was able to combine medicine, literature and philosophy in her scientific path.

* المؤلف المرسل.

She continues through her writings and opinions to provoke widespread controversy among the Arab elite, not only for her defense of Arab women's rights and the struggle to obtain their civil and political rights, but also for her rebellion against the prevailing Arab culture, and for her writings breaking the taboos of sex and religion. In addition to this, she was able to talk about the unspoken in Islamic thought, such as the question of sex, which she tried to analyze by linking it to moral, social and religious questions.

Keywords: Feminism; Woman; Patriarchy; Masculine domination; Philosophy

المقدمة:

الفلسفة النسوية فلسفة غربية في أصلها ومنبتها ظهرت للدفاع عن المرأة وحقوقها وعن حريتها وكرامتها بوصفها إنسانا مثلها مثل الرجل ووقفت في وجه الهيمنة الذكورية وتصدت للقمع والاضطهاد المسلط على النساء من طرف النظام البطريركي أو الأبوي، وسرعان ما وصلت بعض أصداء الحركات النسوية الغربية الى الوطن العربي، فظهرت نخبة من النساء العربيات يحاولن استنبات فكر نسوي عربي، ومن بينهن نجد الطبيبة والأديبة والمفكرة العربية الدكتورة نوال السعداوي (1931-2021)، التي انتجت خطابا نسويا عربيا من خلال العديد من الكتب و المؤلفات التي تناولت فيها بشجاعة وجرأة قضايا المرأة عموما والمرأة العربية خصوصا، فإلى أي مدى يمكن الحديث عن فكر نسوي عربي في أعمال ومؤلفات السعداوي؟ وهل هناك فعلا نسوية عربية أم هي مجرد ترديد ورجع لصدى الفكر النسوي الغربي؟ أم أنها فعلا نابعة من صميم الواقع العربي؟

سنحاول استعراض بعض معالم الفكر النسوي لدى نوال السعداوي، بالدراسة والتحليل كما سنتعرض معها إلى أهم المسائل التي تطرقت إليها وعالجتها بمنظور نسوي، وهي مسائل تندرج في مجال الأخلاق والسياسة والمجتمع، بالإضافة إلى مجال هام وهو وثيق الصلة والارتباط بالمسائل الأخلاقية والسياسية والاجتماعية ونعني به الدين أو لنقل الفكر الديني.

المبحث الأول: نوال السعداوي والنسوية

المطلب الأول: نوال السعداوي وأعمالها

جاء في الموسوعة الحرة ويكيبيديا عن نوال السعداوي أنها طبيبة وكاتبة مصرية، ولدت سنة 1931م في إحدى قرى محافظة القليوبية بمصر، حصلت على بكالوريوس الطب والجراحة العامة من جامعة القاهرة عام 1954، كما حصلت على ماجستير الصحة العامة عام 1966م من جامعة كولومبيا بنيويورك. بدأت "نوال" حياتها المهنية عام 1955م طبيبة امتياز بقصر العيني بالقاهرة، ثم فصلت بقرار من وزير الصحة، بسبب كتابها " المرأة والجنس" وكان ذلك في مطلع الستينيات من القرن الماضي. اتجهت بعد ذلك إلى الكتابة العلمية والأدبية لتدور الفكرة الأساسية لأعمالها حول الربط بين تحرير المرأة والإنسان من ناحية وتحرير الوطن من ناحية أخرى من مختلف الجوانب الثقافية والاجتماعية والسياسية. ولهذا قامت بتأسيس جمعية تضامن المرأة العربية عام 1982كما ساعدت في تأسيس المؤسسة العربية لحقوق الإنسان، كما أسست جمعية التربية الصحية وجمعية للكاتبات المصريات. وعملت فترة رئيسة تحرير مجلة الصحة بالقاهرة، ومحررة في مجلة الجمعية الطبية.

استطاعت نوال أن تنال ثلاث درجات فخرية من ثلاث قارات. ففي عام 2004 حصلت على جائزة الشمال والجنوب من مجلس أوروبا. وفي عام 2005 فازت بجائزة إينانا الدولية من بلجيكا وفي عام 2012 فازت بجائزة شون مأكبرايد للسلام من المكتب الدولي للسلام في سويسرا . وخلال مشوار السعداوي الأدبي حصلت أيضا على العديد من الجوائز، منها جائزة رابطة الأدب الأفريقي، جائزة جبران الأدبية، جائزة من جمعية الصداقة العربية الفرنسية، جائزة من المجلس الأعلى للفنون والعلوم الاجتماعية.

توفيت السعداوي عام 2021، عن عمر ناهز التسعين عاما، تاركة وراءها دراسات مؤلفات عديدة ومتنوعة، ومن أهم كتبها نذكر على سبيل المثال لا الحصر: الأنثى هي الأصل، والمرأة والجنس، وقضايا المرأة والفكر والسياسة، والمرأة والغربة والمرأة والصراع النفسي، كما أصدرت عددا من المجموعات القصصية والمسرحيات، من

أبرزها "تعلمت الحب" و"لحظة الحقيقة" و"عين الحياة، وإيزيس[1].

المطلب الثاني: تعريف المذهب النسوي

يطلق المذهب النسوي على الفكر المؤيد لحقوق النساء والداعي لتحريرهن من القمع الذي تمارسه السلطة الذكورية ضدهن، وقد بدأ في أوروبا في أواسط القرن التاسع عشر كجزء من الخطاب التنويري[2]. الفلسفة النسوية، فلسفة حديثة العهد في الثقافة العربية، وتذهب الباحثة يمنى طريف الخولي إلى أن ظهور مصطلح النسوية لأول مرة كان في الفكر الغربي مع نهاية القرن التاسع عشر، والنسوية في أصولها هي حركة سياسية تهدف الى غاية اجتماعية تتمثل في حقوق المرأة وإثبات ذاتها ودورها[3]. كما ترى أن الفلسفة النسوية تعد تجسيدا لقيم ما بعد الحداثة وما بعد الاستعمارية. هي منطلق نقدي للوضع الراهن، تلقي الضوء على المثالب والقصورات والحيودات، باحثة عن رؤية متكاملة، تستوعب منظورات وقيم الجانب الأنثوي المهمش تصب جميعها في المنحى التطبيقي. ولعلها لا تعبر عن نظرة خاصة بالنساء، بقدر ما تعبر عن نقد وتطوير لما هو عام وشامل للبشر. لا تزعم أن النساء يمتلكن الحقيقة، بل فقط أن الرجال لا يستأثرون بها. وذلك لإحداث توازن وتكامل مأمول بين جانبي الموجود البشري: الذكورة والأنوثة، بدلا من انفراد الذكورة بالميدان، فتأتي المحصلة أكثر سخاء[4].

وبهذا سعت الفلسفة النسوية إلى تأسيس فلسفات خارج النسق الذكوري وتكوين منظومات فلسفية نسوية تخضع لها الثقافة المجتمعية السائدة لتجعل من العالم مكانا أفضل للنساء، تترك أثرها دون أن تكون تحت سلطة الحاكم والمحكوم،فيأخذ دور

(1) . ويكيبيديا الموسوعة الحرة، نوال السعداوي
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D9%88%D8%A7%D9%84_%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%B9%D8%AF%D8%A7%D9%88%D9%8A
تاريخ الدخول: 11 أغسطس 2022.

(2). خديجة العزيزي، الأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي،ط1، بيسان للنشر والتوزيع.بيروت 2005، ص17.

(3) . يمنى طريف الخولي،النسوية وفلسفة العلم، مؤسسة هنداوي، وندسور(المملكة المتحدة) ص263-266.

(4). يمنى طريف الخولي، الفلسفة النسوية فلسفة تطبيقية ضمن كتاب الفلسفة التطبيقية وتطوير الدرس الفلسفي العربي، تقديم مصطفى النشار،ط1، روابط للنشر والتوزيع،القاهرة 2018،ص12.

المرأة المتجول من إمرأة ضحية خاضعة إلى إمرأة غاضبة تبحث عن هويتها وتسعى جاهدة إلى الرفع من شأن جسدها كجسد إنساني لا أنثوي يشكل عارا أو ينظر له من منظور جنسي فحسب[1].

وتذهب الباحثة خديجة العزيزي إلى أن المذهب النسوي اليوم هو الرؤية النسوية الرئيسية في المجتمع الغربي المعاصر. ولكن رغم ذلك لا توجد مدرسة أو حركة نسائية واحدة تمثل هذا الفكر، وإنما توجد حركات كثيرة تنتمي إلى أيديولوجيات وفلسفات مختلفة نمت بتنوع في الغرب وفي أقطار كثيرة في العالم، فهناك الفكر النسوي الليبرالي، والماركسي والمادي والاشتراكي والسحاقي والراديكالي والفكر النسوي لحركة السود[2].

وعلى ضوء ما تقدم يتضح لنا أن النسوية عموما، تعمل على تقويض كل نظرة من شأنها أن تكرس دونية المرأة في المجتمع، أو تسعى إلى قهرها وظلمها، كما يمكن اعتبار النسوية ثورة على مركزية الذكر وعلى سلطة الذكر التي جعلت المرأة أو الأنثى كائنا هامشيا فسلبت منها بالتالي إنسانيتها، ومن هنا فالخطاب النسوي يهدف إلى زعزعة ما هو مألوف وفضح ممارسات القهر والاستعباد للمرأة.

المبحث الثاني: الخطاب النسوي عند نوال السعداوي

المطلب الأول: بين النسوية الغربية والنسوية العربية

تقر نوال السعداوي بوجود مذهب نسوي عربي وترى أن «أهم مسألة قدمها الخطاب النسوي العربي هو محاولة القضاء على الأحادية الفكرية التي ترى الأشياء بعين واحدة (عين الرجل) أو تنكفئ على الذات دون رؤية الآخر»[3]. ولما كانت الفلسفة النسوية فلسفة غربية في أصلها ومنبتها، فهل هناك ما يسوغ زرعها وغرسها في الثقافة العربية الإسلامية، وبالتالي تغدو النسوية كغيرها من الفلسفات المستوردة؟ وفي هذا

(1) . رفقة رعد، النقد الثقافي والنسوية ضمن كتاب الفلسفة والنسوية،إشراف علي عبود المحمداوي، ط1، منشورات ضفاف، بيروت2012، ص166.

(2) . خديجة العزيزي، المرجع السابق، ص21.

(3) . نوال السعداوي، قضايا المرأة والفكر والسياسة، مؤسسة هنداوي، ونسدور2018،ص 299.

تقول نوال السعداوي إن من يتصور «أن حركة تحرير المرأة العربية ليس لها تاريخ، وأنها مستوردة من الغرب، كأنما نساء الغرب هن وحدهن القادرات على النضال ضد الظلم، ونحن النساء العربيات لا نملك إلا الخضوع»[1]. كما لا تردد مفكرتنا في تأكيد أن فكرة تحرير المرأة ليست فكرة غربية، بل فكرة قديمة فرعونية، بدأت في مصر القديمة حين شاركت النساء مع العبيد في مقاومة الطغيان الفرعوني[2].

وإذا كانت فكرة تحرير المرأة من القهر والطغيان والتهميش ليست حكرا على الغرب فقط، فماذا عن الرجل العربي؟ وهل حققنا الفلسفة الرجولية -إن جاز التعبير- حتى نهتم بالنسوية؟ ذلك لأن وضع الرجل العربي ليس على ما يرام أو على ما يراد له من كرامة وحرية وعيش كريم، فهو يعيش القهر والاضطهاد، وهذا ما تقر به "الطبيبة الفيلسوفة" في تحلليها للوضع الاجتماعي والسياسي الذي يعيشه الإنسان العربي ذكرا وأنثى، و يتجلى هذا الوضع عندما يهتف الذكور: الله الملك الوطن، أما الإناث فيهتفن: الله الأب الزوج.[3]فكلاهما إذن يعيش القهر والاضطهاد، غير أن السعداوي ترى أن القهر الواقع على الرجل من جانب واحد هو الدولة أو النظام الاقطاعي والاقتصادي الحاكم، أما المرأة فإن القهر الواقع عليها من جانبين جانب الدولة وجانب الزوج والأسرة الأبوية، وتحرير المرأة العربية لن يكون حقيقة فعلية إلا إذا زال القهران الواقعان عليها من الدولة والأسرة معا[4].

وبهذا يتضح أن الخطاب النسوي العربي يطمح إلى تحرير الإنسان العربي رجلا وامرأة، فإذا كان الرجل العربي مقهورا ومظلوما، فالمرأة العربية أشد قهرا وظلما منه. لنترك الرجل العربي المقهور ولنتحدث عن المرأة الأشد قهرا منه.

ولما كانت المرأة لا تفهمها إلا امرأة مثلها، فإن كل حديث أو خطاب رجالي عنها يظل منحازا وغير منصف، وفي هذا تذهب نوال السعداوي إلى أن المرأة بحاجة إلى معلومات

(1) . نوال السعداوي، المرأة والدين والأخلاق، ط1، دار الفكر ، دمشق 2000، ص 70.

(2) . نوال السعداوي، قضايا المرأة والفكر والسياسة، المرجع السابق، ص84.

(3) . نوال السعداوي، المرجع نفسه، ص25.

(4) . نوال السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية، مؤسسة هنداوي، وندسور2017، ص 196.

صحيحة عن المرأة، تغير المفاهيم الخاطئة التي أشيعت عنها، وتصحح المعلومات التي راجت عنها في العالم، ولهذا لم تكن هذه المعلومات تعبيرا عن حقيقة المرأة ولكنها كانت وجهة نظر الرجل حول المرأة. ولهذا تلح السعداوي على ضرورة الأخذ عن النظريات النسوية في أصولها العلمية التي تدرس في جامعات العالم، لأنها نظريات تبحث في التاريخ عن جذور العبودية والقهر الذي وقع على النساء والعبيد في آن واحد[1].

ولا بد من إشارة وتنبيه إلى أن الفكر النسوي عند السعداوي لا يتناول المرأة العربية فحسب بل المرأة عموما سواء أ كانت عربية أم غير عربية، ولما كان وضع المرأة في الغرب أكثر تحسنا من وضع المرأة العربية، فلا يعني ذلك على الإطلاق أن المرأة قد تحررت نهائيا، لقد «أقدم العبيد والأجراء على ثورات امتدت في التاريخ البشري حتى يومنا هذا، إلا أن ثورة النساء لم تحدث بعد في أي بلد من بلاد العالم»[2]. فالمرأة عربية أكانت أم غربية لم تتحرر بعد «طالما أن النظام الذي يحكم العالم هو امتداد للنظام الطبقي الأبوي الذي نشأ مع العبودية واستمر حتى اليوم بإشكال مختلفة»[3].

المطلب الثاني: تراجيديا المرأة

تتحدث نوال السعداوي عن ميلاد مأساة المرأة وعن الانحراف الذي حدث في مسار التاريخ، وبداية ظهور التفرقة والتمييز بين المرأة والرجل، مع نشوء المجتمع العبودي، وبالتالي تصبح العودة إلى التاريخ ضرورية لفهم تراجيديا المرأة، وهنا تعود مفكرتنا النسوية إلى التاريخ الغابر أي إلى الحياة الطبيعية البدائية، حيث كان الإنسان الطبيعي يعيش حياته كما هي، بمعنى أن الإنسان (ذكرا وأنثى) كان يعيش في وحدة واحدة، و«لم يكن هناك انفصال بين جسم الإنسان وعقله أو نفسه، لم تكن الأديان قد ظهرت بعد وفصلت بين الحلال والحرام، ولم يكن علم الفلسفة قد ظهر بعد، وظهر معه الفلاسفة الذين فصلوا بين الجسم والعقل»[4]، وأصبح بالتالي الجسد يرمز

(1) . نوال السعداوي، المرأة والدين والأخلاق، المرجع السابق، ص222.

(2) . نوال السعداوي، قضايا المرأة والفكر والسياسة، المرجع السابق، ص21.

(3) . المرجع نفسه، ص91.

(4) . نوال السعداوي، الأنثى هي الأصل، ضمن دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، ط2. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت1990، ص154.

إلى الجنس المدنس، والشيطان إلى المرأة ذاتها. أم الروح فهي ترمز إلى المقدس، الجنس الأعلى او الرجل الذي يمثل الإله فوق الأرض[1].

وهذه هي الفلسفة التي ظهرت في المرحلة العبودية والتي كان أساسها يتمثل في الملكية الفردية، ولا شك في أن السعداوي بحكم توجهها اليساري الواضح، تتوسل بأدوات التحليل الماركسية ولا تحيد عن منهج المادية التاريخية، وترى بأن المفكرين الاشتراكيين لهم دور هام في كشف الأسباب الحقيقية التي دعت إلى اضطهاد المرأة في تاريخ البشرية[2].

ومن بين أهم تلك الأسباب، ظهور الملكية الفردية التي أدت إلى تقسيم المجتمع إلى طبقة السادة وطبقة العبيد «وصاحب هذا انحدار في قيمة المرأة في المجتمع والأسرة، وسيطر الرجل عليها سيطرة اقتصادية واجتماعية ودينية...فارتفع الأب بعد وفاته إلى مصاف الآلهة، بينما هبطت المرأة إلى مستوى الماشية»[3].

وهكذا يصبح ظهور الأديان وظهور فلسفة المجتمع العبودي، قد أديا إلى تغير في مسار التاريخ، وتذهب السعداوي إلى أن الفلسفة تحولت «بعد ظهور التوراة إلى فلسفة طبقية أبوية أساسها النسب الأبوي والسيطرة الذكورية في الدولة والعائلة».[4] كما أدت هذه الفلسفة إلى الفصل بين المادة والروح، وجعلت العقل في مقابل الجسد وفي تناقض معه، ليصبح العقل أسمى من الجسد، والفكر هو الأصل والحقيقة، ليصبح الرجل هو العقل والفكر والأصل، بينما المرأة هي النقيض، هي الجسد والمادة والفرع[5].

فالوضع إذن كان مختلفا تماما قبل ظهور الأديان والفلسفات، بما يعني أن هناك عصرا ذهبيا عاشته المرأة، ولهذا تعود بنا السعداوي إلى فجر الضمير الإنساني مع الحضارة المصرية القديمة التي كانت منذ بدايتها تقوم «على المساواة بين الجنسين وعلى

((1)) . نوال السعداوي، المرأة والدين والأخلاق، المرجع السابق، ص16.

(2) . نوال. السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية، مرجع سابق، ص136.

(3) . المرجع نفسه، ص30.

(4) . نوال السعداوي، قضايا المرأة والفكر والسياسة، المرجع السابق، ص177.

(5) . نوال السعداوي، المرأة والدين والأخلاق، المرجع السابق، ص74.

ارتفاع مكانة المرأة الاجتماعية ارتفاعا كبيرا، كانت المرأة تصل إلى مرتبة الإله كما يصل الرجل إليها، لم تكن الألوهية منصبا ذكريا فحسب .ولكن تاريخ مصر القديم حافل بالإلهات اللائي يقدم إليهن القرابين وتقام لأعيادهن حفلات رائعة، ومنهن إلهة العدل وإلهة الحقول وإلهة السماء وإلهة الكتابة وإلهة الحصاد وإلهة الحب والجمال...واشتغلت المرأة كل الأعمال كانت حامية وحاكمة وملكة وكاهنة وإلهة»[1].

كما كان الابن وقتذاك ينسب إلى أمه وليس لأبيه كما هو حال الأسرة الأبوية، وهذا في تصور السعداوي لدليل على سيادة الأمومة على الأبوة في نسب الأبناء[2]. ولذلك نراها ومنذ وقت طويل تدعو ومن دون تردد إلى أن ينسب الطفل إلى أمه كما ينسب إلى أبيه، وقد حاولت في طفولتها أن تكتب اسم أمها إلى جانب اسمها، فتم شطب الاسم، فتساءلت وقتها مستنكرة لماذا تم شطب اسم أمها، أمها التي ولدتها وأرضعتها وعلمتها[3].

لقد كان الهدف من استقراء التاريخ هو إثباتها أن النظام الأمومي كان هو الأصل، والمأساة بدأت مع ظهور الأسرة الأبوية التي تعدها السعداوي «بؤرة النظام الطبقي الأبوي ومن خلالها تتوالد القيم والأخلاقيات والمقدسات الأبوية والطبقية على مر الأزمان»[4]، فظهرت بذلك ما يسمى بالأنا العليا و«هذه الأنا العليا المزيفة التي أصبحت تحمل في العلم والطب النفسي لقبا رفيعا هو الأنا العليا أو الأنا الواعية، وأصبحت الأنا الحقيقية حبيسة الصندوق المغلق هي الأنا الدنيا أو الأنا غير الواعية».[5] ولهذا تدعو السعداوي الإنسان رجلا رجلا وامرأة إلى «أن يحطم هذه الأنا العليا المزيفة من أجل أن يكون مبدعا، وأصبح على المرأة أن تحطم هذا الصنم المزيف المصنوع اجتماعيا منذ الطفولة حتى الموت»[6].

ولما كان الوضع المأساوي الذي تعيشه المرأة أو الصنم المزيف على حد قولها وليد

(1) . نوال السعداوي، الأنثى هي الأصل،مرجع سابق، ص154.
(2) . المرجع نفسه، ص156.
(3) . نوال السعداوي، الرجل والجنس، ضمن دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، ط2. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت1990، ص27.
(4) . نوال السعداوي، قضايا المرأة والفكر والسياسة، المرجع السابق، ص151.
(5) . المرجع نفسه، ص21.
(6) . المرجع نفسه، ص22.

القيم الاجتماعية، فالطبيعة منه بريئة، ذلك لأن «المجتمع هو الذي قيد المرأة لأسباب من عنده، أما الطبيعة فهي بريئة، وحقائق العلم والطب... تؤكد أن الفروق الضخمة التي وضعت بين الرجل والمرأة ليست من صنع الطبيعة»[1]، وفي هذا السياق تستحضر السعداوي مقولة النسوية الوجودية "سيمون دي بوفوار" "المرأة لا تولد امرأة بل تصبح امرأة"، بمعنى أن المجتمع هو الذي يصنع شخصية المرأة وصفاتها الأنثوية وليس الطبيعة أو البيولوجيا ،وهذه الفكرة في نظر نوال السعداوي «هدمت فكرة كان يتبناها "سيغموند فرويد" وتقول إن الطبيعة أو البيولوجيا هي التي تحدد مصير الإنسان الرجل أو المرأة»[2].

لقد أهمل علماء النفس التقليديون وعلى رأسهم "فرويد" المجتمع وأثره في تشكيل حياة الإنسان الجنسية، وكانوا يهتمون بداخل الإنسان أكثر من اهتمامهم بالبيئة الخارجية. وثبت قصور نظرية فرويد التي تقول بان الذي يحكم سلوكنا الواعي إنما هي دوافع العقل الباطن، فقد اتضح أن كل تغيير في شكل أو مضمون وعينا إنما هو رد فعل أو تفاعل لتغير في البيئة من حولنا، وأن الصراعات التي يعاني منها الطفل والتي أرجعها إلى الإحباط الجنسي والغريزة ليست إلا نتاجا لتفاعل الإنسان مع القوى الاجتماعية التي تفرض عليه[3].

وهكذا ترفض السعداوي نظرية "فرويد" وتعتبرها قاصرة وغير وافية بالمقصود، لإهمالها العوامل الاجتماعية وأثرها على نفسية المرأة، كما ترفضها أيضا لأنها صدرت من وجهة نظر أحادية وهي نظرة "فرويد" الرجل[4]، بل تذهب السعداوي إلى أن تحيز "فرويد" غير الواعي لجنسه الذكري كان أحد أسباب عجزه عن فهم حقيقة المرأة[5].

كما أنه «ليس هناك دليل علمي في البيولوجيا أو الفيسيولوجيا أو التشريح ما يثبت أن المراة أقل من الرجل عقلا أو جسدا أو نفسا. إن الوضع الأدنى للمرأة فرض

(1) . نوال السعداوي، المرأة والجنس، ضمن دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1990، ص30.

(2) . نوال السعداوي، المرأة والغربة،دار المعارف، القاهرة1997، ص 94.

(3) . نوال السعداوي، المرأة والجنس، مرجع سابق، ص38 ما بعدها.

(4) . المرجع نفسه، ص39.

(5) . المرجع نفسه، ص164.

عليها من المجتمع لأسباب اقتصادية واجتماعية لصالح الرجل ومن أجل بقاء واستمرار الأسرة الأبوية التي يملك فيها الأب الزوجة والأطفال كما يملك قطعة الأرض»[1].

المطلب الثالث: النسوية والفكر الديني

وإذا كانت دونية المرأة فرضها المجتمع بقيمه ومبادئه، فهل للدين يد في تكريس دونية المرأة؟ وفي هذا نجد السعداوي ترى أن «الدين ليس سببا في اضطهاد المرأة وإنما لأسباب اقتصادية وسياسية»[2]، ومن المهم أن تعرف المرأة العربية أن فقدان حقوقها وإخضاعها ليس له أسباب دينية تتعلق بالإسلام أو بغيره من الأديان الأخرى، وإنما لأسباب اقتصادية ترتبط بتحول النظام الأمومي إلى نظام أبوي طبقي[3].

كما تذهب في موضع آخر إلى أن الدين «ليس السبب التاريخي الأول الذي جعل المرأة أقل قيمة من الرجل، لقد انعكست دونية المرأة في النظام العبودي على الأديان وليس العكس. إن القوى السياسية الحاكمة في الدولة والمجتمع هي التي تعيد تفسير الأديان لصالحها وليس العكس، معنى ذلك أن الدين خادم للسياسة، أما السياسة فهي السيادة العليا صاحبة القرار...وهي قادرة على تسخير كل شيء في خدمتها بما في ذلك رجال الدين»[4].

ذلك لأن الدين الحق كما تقول السعداوي: «لا يفرق بين إنسان وإنسان ولا بين رجل وامرأة ولا بين فقير وغني ولا أسود ولا أبيض، والدين الحق لا يقول للناس اكذبوا واخفوا مشاعركم الحقيقية أو زاولوها سرا في الخفاء واظهروا العفة أمام الناس، الدين الحق ضد الكراهية ومع الحب الصادق النابع من النفس».[5] ولا تفرق السعداوي بين دين ودين آخر فالأمر عندها سيان، فجميع الأديان وجميع المبادئ الأخلاقية والإنسانية تدعو إلى الصدق والحب والحرية والعدالة بين البشر على اختلافهم نساء أو رجالا.[6]

(1) . المرجع نفسه، ص153.
(2) . نوال السعداوي، قضايا المرأة والفكر والسياسة، مرجع سابق، ص159.
(3) . نوال السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية، مرجع سابق، ص136.
(4) . نوال السعداوي، المرأة والدين والأخلاق، المرجع السابق، ص80.
(5) . نوال السعداوي، المرأة والجنس، مرجع سابق، ص149.
(6) . المرجع نفسه، ص305.

فالدين مهما كان الإسلام والمسيحية واليهودية والهندوكية والبوذية هو «ظاهرة روحية نقية في حياة البشر ترتكز على الحق والمساواة وليس على الظلم والتفرقة، وترتكز على الثورة والتقدم وليس على الجمود والتخلف»[1].

ولهذا تدعو السعداوي إلى إعادة تفسير الأديان التي فسرت من طرف الرجال وحدهم، وتتحدث عن "التيولوجية النسوية" التي تدعو إلى «إحياء الأديان اليهودية والمسيحية والإسلام والهندوكية والبوذية وغيرها، على أن يعاد تفسير هذه الأديان من وجهة نظر النساء»[2]، كما ترى أيضا أنه من حقها فهم الدين بعقلها وليس بعقول بعض رجال الدين، وفي الإسلام لا وجود لرجل الدين أو الكهنوت، والعلم بالدين تراه واجبا عليها، وأنها وحدها مسؤولة أمام الله عما تفهمه من دينها[3].

ولقد مارست فعلا السعداوي الاجتهاد في فهم بعض المسائل الفقهية المتعلقة بالمرأة في مجال الأحوال الشخصية وما يتعلق بها من مسائل القوامة والنفقة والميراث وغيرها، فإذا كان الرجال في الإسلام قوامين على النساء بما أنفقوا من أموالهم، لكن عندما تنفق المرأة على الرجل فهل ستصبح القوامة لها عليه؟ وإذا كانت الأنثى ترث نصف ما يرث الذكر، بحجة أنها غير مسؤولة عن الإنفاق، فماذا لو أصبحت تنفق مثل الرجل؟ فهل تتساوى معه في الميراث؟ وإذا كانت شهادة الرجل في الإسلام تعادلها شهادة امرأتين، فكيف هو الحال لو تعلمت المرأة وصارت طبيبة أو أستاذة جامعية أو وزيرة؟ فهل ستظل عاجزة على الإدلاء بشهادتها لوحدها في الوقت الذي يسمح بذلك للرجل حتى ولو كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة؟[4] وبمثل هذه الجرأة ناقشت السعداوي "الفقيهة!" هذه المسائل الفقهية وغيرها، ودعت إلى إعادة النظر في قوانين الشريعة الإسلامية، كما ترى أن لها الحق في أن تجتهد في فهم دينها ولها العذر إن أخطأت في ذلك ويكفيها أجر الاجتهاد[5].

(1) . نوال السعداوي، الرجل والجنس، مرجع سابق، ص383.

(2) . نوال السعداوي، قضايا المرأة والفكر والسياسة، مرجع سابق، ص140.

(3) . نوال السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية، مرجع سابق، ص209.

(4) . نوال السعداوي، الرجل والجنس، مرجع سابق، ص381.

(5) . نوال السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية، مرجع سابق، ص210.

المطلب الرابع: النسوية والأخلاق

وإذا أتينا للحديث عن الأخلاق والقيم التي تقيد المرأة وتفرض عليها قيودا لا تفرضها على الرجل، فإن هذه الأخلاق مصطنعة، وضعها وفرضها النظام الطبقي الأبوي، وفي هذا السياق تذهب السعداوي إلى أن «المقاييس الأخلاقية التي يضعها المجتمع لابد أن تسري على جميع أفراده بصرف النظر عن الجنس واللون أو الطبقة الاجتماعية. فإذا كان المجتمع يؤمن بالعفة في الجنس كقيمة خلقية فلا بد أن تسري على جميع أفراد المجتمع، أما أن تسري على جنس دون الجنس الآخر أو على طبقة دون الطبقة الأخرى، فهذا يدل على أن العفة ليست قيمة أخلاقية وإنما هي قانون فرضه النظام الاجتماعي القائم»[1].

هذا وتتحدث نوال السعداوي في الكثير من أعمالها الفكرية والروائية عن أخلاق الشرف والعفة في المجتمع العربي، وتكشف لنا عما تسميه: «الزيف في مقياس الأخلاق السائدة وأهمها بالطبع مقياس العذرية»[2]. والسبب في ذلك راجع إلى تطور علم الطب، حيث أصبح بفضل تطور الطب الجراحي إصلاح أغشية البكارة ولهذا فإن دم العذرية لم يعد مقياسا للأخلاق أو الشرف، و«من الأفضل للمجتمع أن يصلح الأخلاق على أن يصلح أغشية البنات بالمشرط الجراحي»[3].

وهكذا كما تقول السعداوي: «سقطت قيمة العذرية كمقياس للأخلاق في بلاد العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، لأن الأخلاق الصحيحة تتعلق بسلوك الإنسان اليومي في العمل والبيت والشارع والمجتمع»[4]. ومثل هذه القيم البالية هي التي فرضت عادة ختان البنات في بعض المجتمعات العربية، وبالتالي أدت إلى حرمان المرأة من حقها الطبيعي، ذلك لأن «البظر في جسم المرأة ليس زائدة دودية، بل إنه العضو الأساسي الذي عن طريقه تعرف المرأة لذة الجنس»[5]، ولهذا ترفض السعداوي بشدة عادة ختان

(1) . نوال السعداوي، معركة جديدة في قضية المرأة، ط1، سينا للنشر، القاهرة 1992، ص23.
(2) . نوال السعداوي، المرأة والجنس، مرجع سابق، ص207.
(3) . المرجع نفسه، ص209.
(4) . المرجع نفسه، ص210.
(5) . المرجع نفسه، ص11.

ختان البنات بل وحتى الذكور، ذلك لأنه لا يمكن أن نستأصل من الإنسان جزءًا من جسمه -وإن كان صغيرا- تحت اسم الهوية أو القيم أو التراث[1].

كما أن المرأة تعيش تناقضا اجتماعيا حادا فهي يجب أن تكون باردة عفيفة طاهرة لا تحس الجنس، ويجب أن تكون أداة متعة، تشبع زوجها حتى الثمالة، وجسدها عورة يجب إخفاؤها بمقاييس الأخلاق، وجسدها مباح ويجب تعريته بمقياس الترويج التجاري والإعلانات عن البضائع، وفي ذلك امتهان واستغلال شديدين تعيشهما المرأة، حيث تصير فريسة بين قوتين متنازعتين متضاربتين[2]. ومثل هذه الأخلاق ترجعها نوال السعداوي في تحليلها إلى «الدوافع الاقتصادية والاستغلالية التي نشأت بنشوء الملكية الخاصة التي فرضت العفة على المرأة وليس على الرجل... الحقائق التاريخية والعلمية تثبت في كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع أن القيم الاخلاقية والقوانين تخضع للضرورة الاقتصادية . وليس أدل على ذلك من التطورات التي حدثت في علاقة الرجل والمراة بعد أن تغير المجتمع من الزراعة الى التصنيع ومن التصنيع الى عهد التكنولوجيا والآلات الحديثة .كذلك تغيرت علاقة الرجل والمرأة في بعض البلاد بانتقال المجتمع من الرأسمالية الى الاشتراكية»[3].

ولا شك في أن السعداوي لا تكتفي فقط بتشخيص الوضع المتردي الذي تعيشه المرأة بل تحاول إيجاد الحلول التي تراها مناسبة للتخلص من معاناة المرأة عبر التاريخ، والسعي إلى خلاصها وتحررها من الاضطهاد والقهر، وهذا الاضطهاد الواقع على المرأة لا يمكن إزالته من دون إزالة الأسباب الحقيقية والأصلية له، ولا يمكن تحرير المرأة إلا بالقضاء على كل أنواع الاضطهاد سواء أ كانت اقتصادية أم جنسية أم أخلاقية أم نفسية، كما أن خروج المرأة إلى العمل وحصولها على أجر مساو لأجر الرجل لا يؤدي إلى التحرير الحقيقي مادام النظام الأبوي سائدا وفيه تخضع المرأة للرجل[4].

ولهذا فالمعركة التي تواجه النساء كما تقول السعداوي: «ليست معركة فلسفية

(1) . نوال السعداوي، المرأة والغربة، مرجع سابق، ص136.

(2) . نوال السعداوي، المرأة والجنس، مرجع سابق، ص92.

(3) . المرجع نفسه، ص65.

(4) . نوال السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية، مرجع سابق، ص196.

بين الإيمان والإلحاد أو معركة من أجل التنمية أو التحديث بل هي معركة من أجل أن تعود منابع الثروة الاقتصادية والثقافية إلى يد الشعوب والتمكن من خلق نظام جديد على أنقاض النظام الأبوي الطبقي»[1].

وهنا يتجلى بوضوح لا يحتمل الشك في أن خطاب نوال السعداوي النسوي خطاب إيديولوجي اشتراكي، ذلك لأن الحل الاشتراكي حسب تصورها هو الأنسب والملائم لتحرير المرأة وتخليصها من الاضطهاد، وفي هذا نجدها تقول إن «أفكار "إنجلز" الاشتراكية لا تزال تدوي، وقد كشف عن العلاقة الوثيقة بين الاضطهاد الجنسي والاضطهاد الاقتصادي... وأن أول اضطهاد طبقي حدث في التاريخ هو اضطهاد الرجل للمرأة»[2].

أما عن تدني مكانة المرأة في المجتمعات الرأسمالية رغم تقدمها العلمي والتكنولوجي وثرائها النسبي يجعل السعداوي تدرك أن الطريق نحو الاشتراكية هو الطريق نحو تحرير المرأة وتحرير الرجل معا، و«كلما زادت درجة تحول المجتمع إلى الاشتراكية الحقيقية زاد تحرر النساء بالمعنى الحقيقي للتحرر»[3].

فنحن هنا أمام خطاب نسوي عربي بمنهج غربي ماركسي، وكل ما قيل عن الخطاب العربي الماركسي في قضايا النهضة والتحديث والدولة والمجتمع من انتقادات، يسري أيضا على خطاب السعداوي النسوي المتعلق بقضية تحرير المرأة. فخطابها وإن كان يستشهد بواقع المرأة العربية فهو في الغالب ترديد للخطاب النسوي الماركسي، ولهذا سنكتفي ببعض الملاحظات النقدية الى خطابها النسوي.

عندما تتحدث السعداوي عن المجتمع البدائي الذي يمثل حسب تصورها العصر الذهبي للمرأة، حيث كانت فيه السيطرة للأم، فإن هذه الفكرة كما ترى "سيمون دي بوفوار" هي مجرد افتراض لا غير، وهي فرضية أخذها "إنجلز" عن " باشوفين" واعتبر أن الانتقال من عهد سيطرة الأم إلى السيطرة الأبوية " الانكسار التاريخي الكبير للجنس النسائي"، والحقيقة أن هذه الفترة الذهبية للمرأة ليست سوى أسطورة[4].

(1) . نوال السعداوي، قضايا المرأة والفكر والسياسة، مرجع سابق، ص161.
(2) . نوال السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية، مرجع سابق، ص137.
(3) . المرجع نفسه، والصفحة ذاتها.
(4) . سيمون دي بوفوار، الجنس الآخر، ترجمة ندى حداد، الأهلية للنشر والتوزيع.عمان 2008،ص36.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى عندما ترفض نوال السعداوي وجهة نظر الرجل في مجال العلوم المختلفة بحجة أنها أحادية النظرة، ومن منظور ذكوري، كما هو الشأن مثلا بالنسبة إلى نظريات فرويد في علم النفس، أليست أفكار ماركس وإنغلز وغيرهما من الماركسيين، صادرة هي أيضا من وجهة نظر أحادية، فهي كذلك أفكار ذكورية، وهكذا إذن يظل الفكر العربي المعاصر سواء أكان أنثويا أم ذكوريا فكرا على فكر، ينتج خطابا بأدوات تحليل ومناهج غربية. وهنا تكمن أزمة الفكر العربي المعاصر، وهذا موضوع آخر.

خاتمة:

وعلى الختام يمكننا القول إن نوال السعداوي سواء اختلفنا أو اتفقنا معها تظل رائدة من رائدات الفكر النسوي العربي، وتشهد على ذلك أعمالها وكتاباتها التي ترجمت الى لغات عديدة، لقد كرست حياتها مدافعة عن المرأة بل وعلى الإنسان بصرف النظر عن جنسه، واستطاعت أن تشرح بمشرط الفكر والعقل لا بمشرط الجراحة والطب واقع المرأة المتردي والقمع والقهر المسلطان عليها. كما استطاعت ان تعرض خطابا نسويا نابعا من البيئة العربية وإن كان بمناهج غربية عموما وبالمنهج الماركسي خصوصا. ورغم ذلك فإن بعض آرائها ومواقفها لم تلق ترحيبا وقبولا في أوساط أغلب المجتمعات العربية الإسلامية المحافظة ذات المركزية الذكورية والتي يؤطرها النظام الأبوي البطريركي، كما لقيت بعض أفكارها استنكارا واستهجانا من المؤسسات الدينية الرسمية، ومع ذلك فما يزال الفكر النسوي العربي يشق خطاه نحو المزيد من التكيف والتأقلم مع خصوصية المجتمعات العربية الإسلامية، وليس أدل على ذلك من ظهور ما يسمى بالنسوية الإسلامية.

المراجع:

1- خديجة العزيزي، الأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي،ط1، بيسان للنشر والتوزيع.بيروت 2005.

2- رفقة رعد، النقد الثقافي والنسوية ضمن كتاب الفلسفة والنسوية،إشراف علي عبود المحمداوي، ط1، منشورات ضفاف، بيروت2012.

3- سيمون دي بوفوار، الجنس الآخر، ترجمة ندى حداد، الأهلية للنشر والتوزيع.عمان 2008.

نوال السعداوي، الأنثى هي الأصل، ضمن دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، ط2. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت1990.

4- نوال السعداوي، الرجل والجنس، ضمن دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، ط2. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت1990.

5- نوال السعداوي، المرأة والجنس، ضمن دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، ط2. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت1990،

6- نوال السعداوي، المرأة والدين والأخلاق،ط1، دار الفكر ، دمشق 2000.

7- نوال السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية، مؤسسة هنداوي، وندسور2017.

8- نوال السعداوي، قضايا المرأة والفكر والسياسة، مؤسسة هنداوي، ونسدور2018.

9- ويكيبيديا الموسوعة الحرة، نوال السعداوي
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D9%88%D8%A7%D9%84_%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%B9%D8%AF%D8%A7%D9%88%D9%8A
تاريخ الدخول: 11 أغسطس 2022.

10- يمنى طريف الخولي، الفلسفة النسوية فلسفة تطبيقية ضمن كتاب الفلسفة التطبيقية وتطوير الدرس الفلسفي العربي، تقديم مصطفى النشار،ط1، روابط للنشر والتوزيع،القاهرة 2018.

11- يمنى طريف الخولي، النسوية وفلسفة العلم، مؤسسة هنداوي، وندسور (المملكة المتحدة) 2018.